

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧-١٠٢﴾ [الصافات ١٠٧-١٠٢].

(٤) وَقَدْ سَجَلُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِإِسْمَاعِيلَ، أَنَّهُ شَارَكَ أَبَاهُ فِي الْأَذْكَارِ، وَبَنَاءُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا. وَكَانَا يَدْعَوَانِ رَبَّهُمَا فِي أَثْنَاءِ الْبِنَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة ١٢٧-١٢٩]. هَكَذَا كَانَ إِسْمَاعِيلُ خَيْرًا وَبَرَكَةً لِأَبِيهِ؛ فَكَانَ مَجِيئُهُ إِلَى الدُّنْيَا -كَمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ- تَحْقِيقًا لِدُعَاءِ أَبِيهِ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

(٥) عَلَى أَنَّ بَرَّ الْأَبْنَاءِ بِأَبَائِهِمْ، لَا يَغْنِي أَنْ يُوَافِقَ الْأَبْنَاءُ آبَاءَهُمْ، وَيَسِيرُونَ عَلَى طَرِيقِهِمْ، وَلَوْ ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَى الْجَحِيمِ. هَذَا مَا يَذْكُرُهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ أَبِيهِ آزَرَ. لَقَدْ أَثْبَتَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ مُطِيعٌ لِلَّهِ؛ حَيْثُ رَفَضَ أَنْ يَسِيرَ وَرَاءَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي الْعُكُوفِ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَلَمْ يَقْتَتَعْ بِحُجَّةٍ أَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ لَهَا عَابِدِينَ، وَأَعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ وَآبَاءُهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

(٦) هَكَذَا بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبِيهِ اسْتِقْلَالَ شَخْصِيَّةِ الْإِبْنِ، مَا دَامَ تَفَكُّيرُهُ سَلِيمًا صَحِيحًا. وَلَقَدْ بَلَغَ إِبْرَاهِيمُ فِي ذَلِكَ الْاسْتِقْلَالَ أَنْ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ، وَعَدَلَ عَنِ اسْتِغْفَارِهِ لَهُ، حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ﴾ [التوبة ١١٤].

(٧) وَلَيْسَ مَعْنَى حُبِّ الْأَبَاءِ أَبْنَاءَهُمْ، أَنْ يَقْبَلَ الْأَبَاءُ الْأَبْنَاءَ عَلَى عِلَاتِهِمْ؛ فَيَغْضُونَ الطَّرْفَ عَنْ أَخْطَائِهِمْ، وَيَطْلُبُونَ تَبَرِيرًا لِأَخْطَائِهِمْ بِاسْمِ الْأَبَوَّةِ الْحَانِيَةِ. هَذَا مَا يَذْكُرُهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي قِصَّةِ نوح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَ ابْنِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود ٤١-٤٧].

(٨) وَهَكَذَا بَيَّنَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْذُ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قُرْنًا قُضِيَّةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ حَقِّهِ، وَحَدَّ وَاجِبُهُ، وَأَلْزَمَ الْجَمِيعَ -فِي مُمَارَسَةِ هَذِهِ الْعَلَاقَةِ- بِالْتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَتَرْكِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِذَلِكَ تَسْعُدُ الْأُسْرَةُ، وَيَتَعَاوَنُ الْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ لِيَوْضَعَ لِبَنَاتٍ طَيِّبَاتٍ فِي بِنَاءِ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠]

(بتصرف من: محفوظ أمين غريب)

الوَحْدَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ

الماءُ أَصْلُ الْحَيَاةِ وَسِرُّهَا



ما قبل القراءة:

- ١- ما أهمُّ ثلاثة عناصر لا يستطيع الإنسان الحياة دونها في رأيك؟
- ٢- عندما تسمع كلمة ماء؛ ما أوّل شيء يتبادر إلى ذهنك؟
- ٣- ما أكثر الكائنات الحيّة حاجة للماء في رأيك؟
- ٤- العطش والجوع: أيهما يستطيع الإنسان أن يتحمّله أيّاماً أكثر؟
- ٥- أدكر بعض فوائد الماء للإنسان؛ غير الشرب.
- ٦- كيف يتخلّص الإنسان من الماء الزائد في جسمه؟

الماء أصل الحياة وسرّها

(١) الماء أصل الحياة وسرّها، وهو العنصر الأوّل المكوّن لكلّ خليّة حيّة، فلا حياة بلا ماء. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء ٢٠]. والماء عنصر مهم جداً لأيّ حياة نباتيّة، مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه ٥٣]، كما أنّه أصل كلّ تشكّل حيواني ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور ٤٥]. وهناك بعض العلماء يُعرّفون الحياة بأنّها ظاهرة مائيّة؛ لأنّه لا يوجد كائن حيّ واحد يستطيع الحياة دون ماء. نعم هناك بعض الكائنات تستطيع تحمّل الجفاف زمناً طويلاً، ولكنّها لا تفعل ذلك إلا وهي كامنة لا نشاط لها، ومُتدثّرة بأعطية تحميها من أن تجفّ حتّى تموت. ولكن لا يوجد كائن حيّ واحد، يستطيع النمو والتكاثر دون ماء.

(٢) الكائنات الحيّة مُعظم أجسامها ماء، ولكنّها تتفاوت في ذلك، بحسب طبيعتها وخصائصها وأطوار حياتها؛ فالماء، على سبيل المثال، قليل في البذور والأظلاف والقرون، وقليل نسبياً في بعض حيوانات الصحراء، ولكنّه يزيد على التسعين في المئة من أوزان بعض الثمار مثل: الطماطم، والخيار، وكثير من الكائنات البحريّة. ولو اتّخذنا الإنسان مثلاً، لوجدنا أنّ نحواً من ثلثي جسمه ماء. والماء يحمل إلى كلّ خليّة في جسم الإنسان أسباب حياتها من أكسجين وغذاء وهورمونات ومواد المناعة ودواء وفيتامينات، ويخلصها من كلّ نفاية مُضرة وسامة. وكلّ العمليّات الحيويّة في جسم الإنسان -بلا استثناء- لا تجري إلّا في وجود الماء؛ فدون الماء، لا يحدث تنفّس، أو غذاء، أو هضم، أو حركة، أو إخراج أو تكاثر. ولولاه ما تذوّق الإنسان طعماً، وما شمّ عطراً، ولتبيّست أنسجته، وتلاصقت مفاصله، وارتفعت درجة حرارة جسمه، حتّى

يَمُوت.

(٣) قِصَّةُ الْمَاءِ مَعَ الْإِنْسَانِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ، تَبْدَأُ مَعَهُ نُطْفَةٌ تَسْبَحُ فِي مَاءٍ، ثُمَّ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ. وَتَصِلُهُ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ كُلُّهَا مِنْ أُمِّهِ مَحْمُولَةً مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ طِفْلاً يَرْضَعُ أَوَّلَ غِذَاءٍ لَهُ مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ لَبَنًا سَائِغًا قَوَامُهُ الْمَاءُ. بَلْ إِنَّ الْمَاءَ مَعَ الْإِنْسَانِ حَتَّى فِي آلامِهِ وَأَحْزَانِهِ الَّتِي يَذْرِفُهَا دُمُوعًا. فَلَا عَجَبَ أَنْ يَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ الصَّبْرَ عَلَى الْجُوعِ أَيَّامًا كَثِيرَةً، لَكِنَّهُ لَا يَتَحَمَّلُ الظَّمَأَ إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا أَوْ أَيَّامًا قَلِيلًا لَا تَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعَةِ غَالِبًا.

(٤) يَحْصُلُ الْإِنْسَانُ عَلَى حَاجَتِهِ مِنَ الْمَاءِ مِنْ ثَلَاثَةِ مَصَادِرَ رَئِيسَةٍ: فَنَحْوُ ٤٧٪ مِنْهُ يَشْرَبُهُ مَاءٌ أَوْ سَوَائِلَ مُخْتَلَفٍ قَوَامُهَا، ٣٩٪ مِنْهُ يَكُونُ فِيهَا نَسَبٌ مِنَ الْمَاءِ، أَمَّا الْجُزْءُ الْبَاقِي وَهُوَ ١٤٪ فَيَكُونُ نَتِيجَةَ عَمَلِيَّاتِ الْإِحْتِرَاقِ الدَّائِرَةِ فِي الْجِسْمِ. أَمَّا الْمَاءُ الْخَارِجُ مِنَ الْجِسْمِ، فَنَحْوُ مِنْ ثُلَاثِهِ يَخْرُجُ مَعَ الْبَوْلِ (٩٥٪ مِنَ الْبَوْلِ الْمُعْتَادِ مَاءً) أَمَّا الثُّلُثُ الْبَاقِي، فَيَخْرُجُ مَعَ الْعَرَقِ وَهَوَاءِ الزَّفِيرِ، وَمَا تَطْرُدُهُ الْأَمْعَاءُ.

(٥) الْمَاءُ أَعْظَمُ مُنْظَمٍ لِلضَّغْطِ، وَدَرَجَةِ الْحُمُوضَةِ، وَتَوَازُعِ الْحَرَارَةِ، وَالْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْجِسْمِ. وَيَتَحَكَّمُ فِي كَمِّيَةِ الْمَاءِ فِي الْجِسْمِ، جِهَازٌ مُنْظَمٌ بَدِيعٌ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ صَادِرَاتِ الْجِسْمِ وَوَارِدَاتِهِ تَوَازُنٌ دَقِيقٌ؛ فَالْإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ مِنْ مَائِهِ نَحْوًا مِنْ ١٪ مِنْ وَزْنِ جِسْمِهِ شَعَرَ بِالظَّمَأِ، وَإِذَا فَقَدَ نَحْوَ ٥٪ جَفَّ حَلْقُهُ وَجِلْدُهُ، وَأُصِيبَ بِإِنْهِيَارٍ تَامٍ. أَمَّا إِذَا تَجَاوَزَ ١٠٪ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَقْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، وَلَنْ يُنْقِذَهُ مِنْهُ إِلَّا شَرَبُهُ مَاءً. وَالْعَجِيبُ أَنَّ زَيْدَادَ كَمِّيَةِ الْمَاءِ فِي الْجِسْمِ أَيْضًا خَطِيرَةٌ؛ فَإِنَّهَا تُسَبِّبُ الْغَثِيَانَ وَارْتِفَاعَ ضَغْطِ الدَّمِ، ثُمَّ تَوَدِّي بِالتَّدْرِيجِ إِلَى اخْتِلَاطِ الْعَقْلِ، وَفَقْدِ حَاسَةِ الْإِتْجَاهِ الصَّحِيحِ، وَالْإِخْتِلَاجَاتِ، وَالتَّشْنُجَاتِ، وَالْغَيْبُوبَةِ ثُمَّ الْمَوْتِ. وَلِلْمَاءِ فَوَائِدُ أُخْرَى لِلْإِنْسَانِ لَا تُعَدُّ؛ فَهُوَ يَسْتَخْدِمُهُ فِي نِظَافَتِهِ وَإِعْدَادِ غِذَائِهِ، وَتَنَاوُلِهِ طَعَامَهُ، وَفِي صِنَاعَاتِهِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَسْتَغْنِي إِحْدَاهَا عَنِ الْمَاءِ، وَفِي انْتِقَالِهِ فِي الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ. بَلْ إِنَّ التَّارِيخَ يَذْكُرُ كَثِيرًا مِنْ أَنْبَاءِ الْمَعَارِكِ الَّتِي دَارَتْ بِسَبَبِهِ، وَالْحَضَارَاتِ الَّتِي ازْدَهَرَتْ بِسَبَبِهِ، وَتِلْكَ الَّتِي بَادَتْ بِسَبَبِ فَقْدِهِ، أَوْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ.

(٦) وَبَعْدَ فَقْدِ تَبَيَّنَ لَنَا، أَنَّ الْمَاءَ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ اللَّهِ؛ فَالْمَاءُ أَصْلُ الْحَيَاةِ وَسِرُّهَا، وَلِذَا يَجِبُ أَنْ نَحَافِظَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ بَعِيدًا عَنْ مَصَادِرِ التَّلَوُّثِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَأَلَّا نُسْرِفَ فِي اسْتِعْمَالِهِ.

(مِنْ مَجَلَّةِ الْوَعْيِ الْإِسْلَامِيِّ: بِتَصَرُّفٍ)